

الرحلة في سبيل العلم

وهذا عبد الرحمن ابن غنم الأشعري يبعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه أهلها .
وهذا الليث بن سعد يغادر مصر إلى المدينة ليأخذ من ربيعة الرأي .

وهذا الاوزاعي يلتقي بعطاء بن أبي رباح وابن شهاب الزهري بمكة ويأخذ عنهما ، ثم يرحل إلى البصرة ليأخذ عن شيوخيها ، ثم يلقى عسا التسيار بالشام ليبحث فيها علومه وفقهه .

وهذا عبد الله بن وهب (المصري) يرحل إلى المدينة ليصبح مالكا حتى يموت ثم يعود إلى مصر لينشر فقهه مالكا ويتخرج على يده جبهة علماء المالكية .

وهذا الشافعي يرحل من مكة إلى المدينة ليتقن على مالك ، ثم إلى العراق ليلتقي بأصحاب أبي حنيفة ، وأخيراً إلى مصر ليؤسس فيها مدرسته .

وهذا يحيى بن يحيى الليثي (الأندلسي النشأة) يرحل في شبابه إلى المدينة ليسمع من مالك ، ثم إلى مكة ليسمع من سفیان بن عيينة ، ثم إلى مصر ليسمع من الليث بن سعد وغيره .

وهذا البخاري يبعث في الرحلة لطلب العلم وتلقى الأحاديث فيرحل إلى بلخ وإلى مرو ونيسا بور ، وإلى الري والبصرة والسكوفة وبغداد ومكة والمدينة ومصر ودمشق وحمص وقيسارية وعسقلان !

والخليل بن أحمد والاصمعي وأبو عمرو بن العلاء يرحلون إلى البادية ويقيدون عن أهلها العلم والآداب .

ولو أنني أطلقت العنان للقلم ليسترسل في ضرب الأمثلة من رحلات علمائنا الأخيار وأتمتنا الأبرار ، أو انتقلت بك إلى بلاد الغرب وطوفنا مع علمائنا من أثينا إلى روما إلى الاسكندرية إلى معاهد الأندلس ، وتنقلنا في مختلف العصور من لدن سقراط ومدرسته الفلسفية وذكرنا

سئل أديب : كيف حرصك على العلم ؟ فقال : حرص المجموع الممنوع على بلوغ لذته في المال . قيل : وكيف طلبك له ؟ قال : طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره ! .

هكذا كان تعشق أسلافنا للبعرفة يحفزهم على التماسها أينما كانت ، والسعي وراءها حيثما وجدت ، يشدون إليها الرحال ، ويركبون متن كل صعب وذلول ، سواء لديهم السهل والحزن ، والبر والبحر ، والبرد والحر ! .

وإذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام

هل أتاك نبأ جابر بن عبد الله صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بلغه وهو بالمدينة أن لدى عقبة بن عامر بمصر حديثاً في القصاص فيبادر إلى السوق واشترى بغيراً ثم شد عليه رحله وضرب به في الأرض شهراً حتى وصل إلى مصر ولقى صاحب الحديث ، فقال له : ما الذي جاء بك ؟ قال : حديث تحدث به عن رسول الله في القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك ، أردت أن أتمعه منك قبل أن أموت أو تموت ! .

ولعلك قرأت قول أبي الدرداء رضي الله عنه : دنو أعيتني آية من كتاب الله لم أجد أحداً يفتحها علي إلا رجل يبرك الغمام لرحلات إليه .

وكان — صلى الله عليه وسلم — يرسل من أصحابه إلى الأمصار من يقضى بين الناس ويقرئهم القرآن ويعلمهم الدين والأحكام .

ومن بعد الصحابة رضوان الله عليهم ، اقتفى التابعون لهم بإحسان أثرهم ، ونسجوا على غرارهم ، فأحبوا العلم ورحلوا إليه من أقصى الأرض إلى أقصاها ، لا يعوقهم فقر ، ولا يرهقهم خطر الطريق أو عذاب السفر !
فهذا نافع يرحل إلى مصر ليعلم الناس السنن .

رحلات المؤرخ هيردوت ثم وصافنا إلى عصر المأمون ، وانتقال تراث أوروبا الثقافي إلى أيدي المسلمين ليضموه ويخرجوه بثقافتهم العربية الإسلامية ثم يحملوه إلى أبناء أوروبا بعد أن ركبت فيها ريح العلم واستولى عليها الجهل وفشت فيها الخرافات والباطيل فينهضوا لبناء هذه الحضارة الواسعة الشاملة . .

أقول لو أنني فعلت ذلك لتشعب على البحث وطال في المدى ، وحسبي أن أشير إلى مآل رحلات العلية والالتقاء العلماء واستفادة بعضهم من بعض من الأثر العظيم في تأسيس العلوم ثم بسطها واتساعها وتطورها حتى قامت الحضارات الحديثة على أساس العلوم والمخترعات .

ولقد كان للأزهر الشريف اليد الطولى والفضل الأكبر : فقد حافظ على هذا التراث في العصور الوسطى المظلمة . وبقي وحده قائماً كشعلة من النور وسط هذه الحجب السكيفة من الجهل والظلام . حتى إذا انتبه العالم وتطلع إلى المعرفة وحاول النهوض : اضطلع الأزهر برسائله وفسح صدره لمن يقصده من طلاب العلم الذين رحلوا ويرحلون إليه من سائر أقطار العالم الإسلامي . فيغذيهم من معارفه ، ويرضعهم من لبنائه ، ويرويه من معينه ، حتى إذا رجع الواحد إلى وطنه وأهله حمل إليهم قبساً من نوره . وبث فيهم من ثقافته وعلومه .

ولم يقتصر الأزهر على تغذية هذه الوفود والترحيب بهم ، بل أرسل أشعة من ضيائه إلى البلدان الإسلامية وأوفد إليها من خلاصة أبنائه من يضطلعون برسائله وينشرون هناك من ثقافته .

ولقد كانت الكويت الفتية في طليعة الركب فطلبت معارفها الرشيدة من الأزهر أن يعاونها في إنشاء معهد على يدرس فيه ناشئة الكويت العلوم الدينية العربية على نط الدراسة في الأزهر ومعاهده في مصر ، فبادر الأزهر إلى تلبية هذا النداء الكريم واختار اثنين من أبنائه لهذه المهمة السامية ، أحدهما فضيلة الأستاذ الشيخ علي البولاق والآخري ركانب هذه السطور .

وقد نجحت الفكرة ، وفتح المعهد في العام الدراسي المنصرم ، وقننا فيه بواجب التدريس ورسم الخطط

والبرامج التي تهدف إلى تحقيق أغراضه تحت إشراف مجلس المعارف الموقر وعلى ضوء توجهاته وإرشاداته ، ولقد كان لنا من صدق رجال المعارف وصحة عزمهم ما شجعنا على مضاعفة الجهد والإخلاص فزاد الإقبال على المعهد وتشعبت الدراسة فيه مما دعا إلى الاستعانة ببعض المدرسين من إخواننا الكويتيين ، ومضاعفة عدد العلماء الأزهريين في العام الدراسي الحاضر .

وها هو ذا المعهد يسير في دراسته على أتم نظام وأحكامه . ويتدرج في خطا واسعة إلى الكمال . ويفسح صدره لشتى الثقافات : ينهل منها طلابه ، ويتوسعون في الدراسات الشرعية والعربية ، ولو أتيح لك أن تزور المعهد وتحضر درساً من دروسه . وتستمع إلى مناقشة الطلاب وإجاباتهم : لحيل إليك أنك في صحن الأزهر مع طلابه ، أو أن قطعة من الأزهر قد انتقلت إلى الكويت . .

وإن من إعطاء الحق لذويه أن أسجل مآل رجل المعارف ومديرها الأستاذ طه بك السويدي ، من يد مشكورة في نجاح فكرة المعهد وتيسير السبل أمامنا لأداء رسالتنا الأزهرية في المعهد الناشئ . ولدى الشعب الكويتي النبيل .

كما أسجل همة المعارف ورجالها — وعلى رأسهم سعادة الشيخ عبد الله الجابر — فقد أولت المعهد جانباً كبيراً من عنايتها ، وأنفقت عن سعة عليه وعلى طلابه ، ولا يزال العمل جارياً في بنائه الجديد في وسط المدينة ، وإن البشائر لتدل على ما سيكون للمعهد من أثر كبير في نهضة الكويت السريعة الفاتحة .

حرس الله الكويت ، ورعاها . في ظل عاقلها العظيم ، الشيخ أحمد الجابر ، ووفق ولاية الأمر لما فيه سعادة البلد الكريم ومجده .

محمد محمد عبد الرؤوف

مبعوث الأزهر بالكويت